ورقة عن المغرب زمن المرينيين

حميد تيتاو

نحاول في هذه الكبسولة أن نعرف بتجربة المرينيين في حكم بلاد المغرب الأقصى؛ وهي تجربة نحسب أنها أسهمت في تكريس كثير من مرتكزات الهوية المغربية، مثلما تشكلت في عهدها أغلب عناصر الهوية الجيوسياسية لبلاد المغرب الأقصى. وسيكون من المهم أن نؤكد في هذا الصدد دقة مقولة أصاب أحد الكتاب الصحفيين في صياغتها، ويتعلق الامر بمحمد باهي، حين وسم مقالة له ضمن رسائل باريس بعنوان: المرينيون، معاصرونا. وللتعريف بهذه المرحلة سنذكر بإيجاز بطبيعة المادة المصدرية المعتمدة في صياغتها، وننبه إلى أن جزءا مهما مما كتب عن زمن المرينيين الأوائل صيغ من قبل أدباء وإخباريين ونسابة بطريقة بناء تراجعية انطلقت من ظرفية الحكم وقد توطدت أركانه في عهد سلاطين أواسط هذه الدولة لتعيد صياغة هوية المرينيين بما يمنح لها نوعا من المشروعية السياسية والدينية في تمهيد البلاد وإخضاعها. وإذا كانت هذه المادة تجعلنا أمام ذاكرة جمعية احتفالية وانتقائية أيضا، فإن من حسن الحظ أن نتوفر على روايات أخرى محايدة إلى حد كبير أسهمت في ضبط كثير من تفاصيل هذه المرحلة وسياقاتها.

سنتحدث في بداية هذه الكبسولة عن **المرينيين باعتبارهم متغلبين لأجزاء مهمة من بلاد المغرب الأقصى بلا سند ديني أو سياسي واضح**؛ فنعرف أولا بهذه القبائل الزناتية الرعوية التي كانت تمارس ترحالها في التل الشرقي للمغرب الأقصى، وكيف استغلت تدهور الأوضاع بُعيد معركة العقاب سنة 609هـ/1212م لتقتحم ممر تازة وتفرض غلبتها على أجزاء مهمة من بادية المغرب الشمالي، ثم على بعض حواضره خلال العقود الأربعة الأولى من القرن 7هـ/13م.

ومن خلال وسم **"تحت مظلة الحفصيين"** سنتعرف، إلى جانب تفاصيل التحرك القبلي المريني المدفوع برغبات التوسع المجالي الصرف، على الهزات العنيفة التي أصابت الخلافة الموحدية بعد محو المأمون لرسوم العقيدة التومرتية وتجريد هذه الخلافة من هويتها، وهو ما أفضى، إلى جانب عوامل أخرى، إلى إعلان أبو زكريا الحفصي في إفريقية نفسه الوارث الشرعي للخلافة الموحدية. وقبله، كان بني هود في الأندلس، وإعلان بني عبد الواد استقلالهم بإمارة تلمسان ونواحيها ما يحيل إلى تشكلات الهوية الجيوسياسية لبلاد المغرب الأقصى كما ستصبح معروفة منذ هذه المرحلة. وخلالها قرر المرينيون إعلان الولاء للحفصيين في تونس. وبموجب صك التبعية هذا، تم إخضاع مجالات أخرى ومدن وحواضر كثيرة، ومنها فاس التي انتصب فيها شيخ المرينيين أميرا لأول مرة، وانتهى الأمر في الأخير بإخضاع مراكش وإسقاط أركان الدولة الموحدية.

وعبر مادة وسمناها بـ **"تملّك مفاتيح التراب، والجهاد في الأندلس"**، سنتعرف على السياقات العامة التي انتهت إلى أن يعتلي الأمير المريني عرش الحكم في المغرب الأقصى واتخاذ فاس عاصمة لهذا الحكم، وإعلان ولاية العهد في أحد أبنائه، ثم ما أعقب ذلك من انطلاق حملاته لضبط مفاتيح تراب المغرب الأقصى، ومنها سجلماسة بوابة الصحراء ومنطلق الحضور المغربي في تخوم الصحراء وطنجة ثم سبتة لضمان منفذ نحو الشمال المتوسطي وتكريس الحضور المغربي في البوغاز.

وستوضح هذه الكبسولة كيف وفر عبور المرينيين نحو الأندلس غطاء شرعيا كانوا في حاجة إليه، مع التذكير بأهمية العلاقة بين الجهاد ومسألة الشرعية السياسية والدينية بالنسبة للتجارب التي تعاقبت على حكم المغرب. وقد كان بالنسبة للمرينيين ضرورة ملحة في الوقت الذي بدأت تطرح بإلحاح مسألة استبدادهم بالحكم دون أي أساس إصلاحي. دون أن نغفل المتغيرات الكبرى في البحر الأبيض المتوسط ورغبة المرينيين في التحكم في البوغاز بعد تنامي مطامح الممالك المسيحية للسيطرة على القسم الجنوبي من الأندلس، وكذا على الموانئ الساحلية المغربية.

وإلى جانب حاجة المرينيين إلى الجهاد لتحقيق مشروعيتهم السياسية، سنوضح كيف أثبت الحضور المريني في الأندلس مكانتهم في الحوض الغربي للمتوسط وفي منطقة البوغاز على المستوى الجيوسياسي والاقتصادي، خاصة وأن إحكام السيطرة على سجلماسة وسبتة ما كان له أن يؤتي أكله لو لم يتمكنوا من ضبط منطقة الزقاق لارتباط المدينتين بعالم حوض البحر المتوسط واندماجهما في شبكاته التجارية.

وفي نافذة أخرى أساسية نسمها بعنوان **"المرينيون حكاما للمغرب الأقصى: تعقيدات البناء"**، سنبسط لأهم الاختيارات التي لجأ إليها المرينيون لإثبات مشروعيتهم السياسية، خاصة أمام توتر علاقتهم بأهل فاس، واضطراب علاقتهم بأبرز الفاعلين الاجتماعيين وفي مقدمتهم العلماء والمتصوفة بسبب الضغط الجبائي الذي مورس على مختلف الفئات.

ويبدو أن العلماء، وعلماء فاس تخصيصا، كانوا في مقدمة من كان على المرينيين تدبير علاقتهم بهم بكثير من الحنكة، إذ لم ينهي الجهاد في الأندلس، أو الانتساب إلى المالكية تحفظ بعض هؤلاء من الحكم المريني، واعتبارا لأدوارهم الأساسية، فإنهم لم يترددوا أولا في محاولة تقريبهم، مع دعم المرجعية السنية المالكية بشكل كبير، ولكن أكثر في تأهيل الحقل الديني عبر تأسيس مدارس وتمويلها لتخريج فقهاء موالين لها. وهو ما واجهه فقهاء بأساليب عدة، لكن أغلبهم قبلوه عندما أدركوا انتفاء المبررات المصرح بها في رفض هذا المشروع، ومنها تقريب يهود فاس وتمكينهم من المناصب والامتيازات.

من زاوية أخرى، وعبر نافذة **"طموح توحيد المغارب"**، سنُعرف بأبرز السياقات التي عجلت باتخاذ الحكم المريني، خاصة زمن أبي يعقوب يوسف، قرار التوجه شرقا وتأجيل مطامحهم في الأندلس، ومنها تقلبات صاحبي غرناطة وتلمسان وتحالفهم مع الطرف المسيحي في أكثر من مرة من أجل وقف النفوذ المريني في البوغاز، ودعم بني عبد الوادي لكل المتنطعين للحكم داخل المغرب الأقصى، وغير ذلك مما عجل بتوجه المرينيين للجبهة الشرقية والبدء بتلمسان. ومن أجل ذلك كان على الحكم المريني إعداد الجبهة الداخلية لدعم اختياراته؛ خاصة وأن التوسع في المغارب يتطلب منافسة الشرعية الحفصية، كما أن التطلع إلى الخلافة يحتاج إلى دعم فئات اجتماعية كان لها موقع متميز وسط المغاربة؛ ويتعلق الأمر بالشرفاء، والذين يمكن لمظلتهم أن تمد الدولة بالمشروعية اللازمة، دون الدخول في لعبة ادعاء النسب الشريف. ومن أجل ذلك، تم تقريب شرفاء فاس، وشرفاء سبتة، وتعميم الاحتفال بعيد المولد النبوي الشريف، وتمتيع الشرفاء بالامتيازات وظهائر التوقير، إلى جانب الاتصال بشرفاء الحجاز ليباركوا هذه الجهود. دون أن ننسى الإشارة إلى اعتماد السلاطين لأسلوب اجتماعي من قبيل الإحسان، وبناء المارستانات والانفاق على الطلبة وعلى الفئات الهشة مثل المرضى والفقراء... والأهم من ذلك كله، تأمين الطرقات وكف أيدي الظلمة والعمال عن الناس، وتخفيف العبء الضريبي.

وسيكون مهما أن نشير إلى ما أسفرت إليه حملات السلطان المريني ومسألة الحصار الطويل لتلمسان، إذ كان من الممكن أن تفضي إلى تغيرات كبرى على مستوى الحكم في بلاد المغارب لولا أن أفضت تدخلات بني الأحمر في المغرب ومنافسة تونس وبجاية وتقلبات المشيخة المرينية إلى إجهاض مشروع التوسع نحو الشرق إلى حين.

وبخصوص أواسط هذه الدولة، سيكون مناسبا التركيز على أن فترة حكم السلطان أبي سعيد عثمان التي اتسمت بنوع من السلم سواء في الجبهة الشمالية أو الشرقية، باستثناء بعض القلاقل الداخلية، كانت فرصة لترتيب البيت الداخلي وتنظيم الدواوين وإرساء نظام المخزن المريني بشكل دقيق. وربما ستكون فرصة لذكر مكونات هذا النظام.

وبعنوان **"أبو الحسن: سلطان المغارب"**، سيكون جيدا الاحتفاء "بموضوعية" بفترة هذا السلطان التي شكلت مرحلة الأوج في مسار الدولة المرينية، لأن الذاكرة الجماعية للمغاربة تحتفظ لهذا السلطان بصور عن "عدله" وورعه. لذلك سيتم التنويه بمراجعته المتميزة للسياسة المرينية في مجال الضرائب، وسحبه لكثير من الامتيازات التي جعلت البعض يتمتع بريع الحكم وترفه، مع الحرص على تكثيف المراقبة لتدبير المال العام. وفي الوقت نفسه، ستتم الإشارة إلى طموح هذا السلطان لتوحيد المغارب، والتي تطلبت تهيئة جيدة للجبهة الداخلية عبر تقريب "النخب الدينية"، ومواصلة تقريب الشرفاء وتخصيصهم بمزوار يمثلهم، وإحصائهم لغرض حصرهم وتقديم الاعطيات لهم. كما سنشير إلى تمكن

المخزن زمن أبي الحسن من تحسين صورته والتقرب أكثر من ذي قبل إلى فئة المتصوفة وأرباب الطوائف الذين تحولوا إلى شريحة اجتماعية اكتسبت زخما شعبيا ودعما مجتمعيا كبيرا. وقد تمكن أبو الحسن من تذويب بعض الخلافات مع هذه الشريحة القوية لحاجته إليهم؛ فتقرب إليهم ببناء الزوايا والإنفاق عليها، وتمويل مواسمهم السنوية...

وبعد إعداد الجبهة الداخلية كشف أبو الحسن عن رغبة ملحة في الاستئثار بزعامة الغرب الإسلامي. وسنعرض لاسترجاعه جبل طارق من بني الأحمر، وتمكنه من ضم مملكة بني عبد الوادي، وإدماجه نخب تلمسان في منظومة المخزن. كما سنتتبع تدخلاته لإثبات مكانته في الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط، وللسياقات العامة التي أفضت إلى توقف مشروعه في الشمال بهزيمته في طريف سنة 741هـ/1340م، وتركيزه جهود المخزن المغربي على تجهيز السواحل وإنشاء الربط والمحارس فيه، من أسفي إلى إفريقية. أما مشروع توحيد المغارب، فسنعرض للحملة الكبرى التي قادها نحو تونس والتي انتهت بضم إفريقية واحتفال السلطان بنفسه خليفة للمسلمين في المغارب في جمادى الثانية 748هـ/1347م. كما سنعرض لمختلف الظروف التي عجلت بتبخر هذه المنجزات الداخلية وافتقاد السواحل وذهاب النفوذ وضياع الملك بالنسبة لصاحب المشروع، كما سنعرض للمحاولة الأخيرة لتوحيد المغارب من قبل ابنه أبي عنان، ولاجتهادات هذا الأخير في مواصلة مسيرة والده، من خلال سياسة "كسب القلوب".

وفي عنوان سنسمه بـ "أزمة النصف الثاني من القرن 8/ 14" سنتعرض للبدايات الأولى للأزمة الكبرى التي أصابت نظام الحكم المريني وأفضت إلى تدهور الأوضاع العامة في بلاد المغرب الأقصى، وستكون البداية مع ظروف الطاعون الأسود الجارف الذي وصل إلى المغرب سنة 749هـ/1348م، و«تحيف العمران حتى كاد أن يأتي على الخلق أجمع»، حيث سنعرض لبعض صور هذا الوباء ولتدبير المغاربة له، مخزنا ومجتمعا، طبيا وشعبيا، كما سنعرض لانعكاسات تزامنه مع انهيار مشروع أبي الحسن لتوحيد المغارب، وسقوط جبل طارق للمرة الأخيرة من سلطة المغاربة. كما سنتناول ما صار إليه حكم المغرب بعد أبي عنان، حين بدا واضحا أن الأمر يتعلق بالتوغل عميقا داخل المنعرج الأكبر في العلاقة بين جنوب البحر المتوسط الغارق في أوحال الماضي دون أي بصيص إصلاحي، والشمال المتوثب للسيطرة على البحر المحيط والتوغل بعيدا على حساب المغرب ومصالحه.

أما ما سنقدمه في هذا الباب، فنختصره في تشكل ملامح ثورة مضادة من قبل نخبة عسكرية وسياسية تضررت من القرارات الإصلاحية التي نفذها السلطان أبو الحسن وابنه أبي عنان واستهدفت استرجاع الامتيازات، والتحكم في دواليب القرار. فدخل المغرب الأقصى في مرحلة طويلة من المشاحنات وتعدد الأوصياء والوزراء المتنفذين. اتسمت بتنصيب سلاطين صغار السن، أطفالا أو فاقدي الأهلية، وكثرة عمليات التنصيب والخلع أو

القتل في صفوف الأمراء. وبسبب تضارب المصالح بين الأشياخ والمتنفذين ورغبة كل واحد منهم في التحكم، فقد انطلق مسلسل طويل من الدسائس راح ضحيته أمراء ووزراء وحجاب أيضا.

ومن المهم أن نشير إلى إسهام الأطراف الخارجية، سواء بني الأحمر أو بني عبد الواد في تلمسان، في صناعة هذا المشهد البئيس بما يخدم أهدافها الاستراتيجية؛ حيث دبروا كثيرا من عمليات التنصيب أو الخلع أو القتل هذه. وقد وصل الأمر أن بلغ تدخل غرناطة في المغرب الأقصى «وكأنه من بعض أعمال الأندلس». أما على مستوى المغارب، فقد انطلقت محاولات مغربية لضم تلمسان لكن دون نتائج واضحة. وحدث أن حاول سلطان بني حفص تجاوز تلمسان نحو فاس، لولا الاتفاق الذي جمعه بأوصياء الحكم فيها. وفي ظل هذه المتغيرات الكبرى وأمام الضعف الذي أصاب المخزن المريني وكثرة الفتن الداخلية والصراعات بين الامراء والمشايخ حول الحكم ومنافعه، وصلت غارة لسفن قشتالية إلى تطوان فدمرتها سنة 803هـ/ 1399هـ، وما لبثت سفن البرتغاليين أن اقتحمت مدينة سبتة سنة 818هـ/1415م، ليبدأ مسلسل سقوط السواحل المغربية في يد الأجنبي طيلة القرن التاسع الهجري/ 15م، في الوقت الذي كان فيه الأوصياء الوطاسيين على آخر السلاطين المرينيين يحاولون إعلاء مكانتهم على حساب سمعة المرينيين ونفوذهم.